ما سمعت وما رأيت
في بلاد السوفيت
- ٥ -

الى لنينغراد :

غادرنا موسكو في الساعة ٢٣٫٥٥ من مساء السبت ١٣ تشرين الثاني من محطة لنينغراد (Leningradsky) وهي من أقدم محطات العاصمة السوفيتية مضى على تشييدها أكثر من مئة عام مستقلين القطار المعروف بالسهم الأحمر (the Red Arrow) وهو قطار فخم توفرت فيه أسباب الراحة نظير أمثاله من قطر الغرب ، ولركاب الدرجة الأولى غرف ذات سريرين يعلو الواحد الآخر ومغسلة فيها ماء جار حار وبارد وخزانة للثياب ومذياع متصل بالإذاعة العامة يفتح ويغلق متى شاء الراكب والتدفئة فيها جيدة . ولا ما ينتقد فيه إلا صوت العجلات المزعج ، وسرعة سيره متوسطة فقد قطع المسافة ما بين موسكو ولنينغراد وقدرها ٦٥٠ كيلومتراً بعشر ساعات لم نلاحظ توقفه خلالها سوى أربع مرات ، ولم نستطع تبين أسماء المحطات ، ولاح لنا نور الفجر من خلال الستارة المسدلة على النافذة في منتصف الساعة السابعة صباحاً ، ولم نرَ من هذه الطريق ومن خلال الستارة المسدلة سوى بعض الأحراج الكثيفة والمستنقعات . وتوقف القطار أخيراً في الساعة ١٠٫٤٠ .

ولقد ألفينا في استقبالنا في المحطة بعض أعضاء مجمع العلوم وبينهم عقيلة المستشرق الراحل كراتشوفسكي وأحد الأطباء المشرفين على معهد باولوف في لنينغراد وقد زرته إبان إقامتي في المدينة . وأقلتنا الى المدينة سيارتان وحللنا في فندق أستوريا (Astoria) وهو من فنادق الدرجة الأولى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

برنامج الزيارة في لنينغراد :

لم نبلغ برنامجاً لإقامتنا في هذه المدينة ، إلا أن الزيارات التي تمت خلال إقامتنا فيها كانت كما يلي :

الأحد ١٤ تشرين الثاني	الساعة ٢و٠٠	متحف الصومعة
	الساعة ٢٠و٠٠	أوبرا (خطيبه القيصر)
الاثنين ١٥/ ١١	الساعة ١٠و٠٠	زيارة معالم المدينة
	الساعة ١٢و٠٠	المعهد الشرقي ومعهد باولوف (خاص)
	الساعة ١٦و٠٠	متحف لوموسوف ومتحف الأقوام
	الساعة ٢٠و٣٠	سنفونيا
الثلاثاء ١٦/ ١١	الساعة ١٠و٠٠	مرصد بولكوف
	الساعة ١٢و١٠	مصرف الدم (خاص)
	الساعة ١٥و١٥	مكتبة المجمع العلمي
	الساعة ١٦و٣٠	معهد الآداب الروسية
	الساعة ١٩و٥٠	أوبرا (حسناء الغابة الهاجعة)
الأربعاء ١٧/ ١١	الساعة ١٠و٣٠	زيارة المقبرة وضريح كرانشوفسكي
	الساعة ١١و٣٠	مكتبة سالتيكوف
	الساعة ١٢و٣٠	متحف الحيوانات
	الساعة ١٤و١٠	عيادة طبية (خاصة)
	الساعة ١٩و٥٠	أوبرا (فاوست)
الخميس ١٨/ ١١	الساعة ٨و٣٠	ضاحية سمولني
	الساعة ١٠و١٥	معمل الأحذية
	الساعة ١٢و٠٠	الدارعة الفجر
	الساعة ١٢و٢٠	المعهد الشرقي
	الساعة ١٤و٠٠	قصر الطلاب
	الساعة ٢٣و٠٠	العودة الى موسكو

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعلى ذلك فقد كان البرنامج مثقلاً جداً لم يترك لنا فيه وقت للراحة . وأتيح لي في هذه الأيام الخمسة التي قضيتها في لنينغراد زيارة بعض المؤسسات الطبية التي سيأتي وصفها في مقال خاص .

مدينة لنينغراد :

تعد لنينغراد (Leningrad) المدينة الثانية في بلاد الاتحاد السوفيتي ، وكانت عاصمة القياصرة حتى ١٨ آذار ١٩١٨ أسسها بطرس الأكبر (١)

(١) ولد بطرس الأكبر في موسكو سنة ١٦٧٢ ومات في بطرسبورغ سنة ١٧٢٥ وهو الابن الثالث للقيصر (Alexis Mitholovitsk) تولى الملك بعد أن نشأ في الريف الذي أقصته إليه أخته صوفيا الوصية على عرش أخيه ايفان ، ومارس حياة التقشف وعُني بالفروسية ، إذ عاد وهو في السابعة عشرة من عمره الى موسكو مستعيناً بجنود المليشيا (Strelitz) مقصياً أخته عن وصايتها وباعثاً بها الى الدير حيث قضت نحبها فيه ، أما أخوه فلم يسمع له ذكر .
ويعد بطرس الأكبر باعث النهضة الأول في تلك البلاد التي كانت متأخرة جداً في مضمار المدنية الحديثة ، واليه يُعزى الفضل في إدخال التجدد وتكوين الجيش والأسطول . فقد استخدم المهندسين الغربيين مستعيناً بخبرتهم ، وشد عصا الترحال الى أوروبة عدة مرات باحثاً ومتعلماً حتى أتقن عدة صناعات سيأتي ذكرها في وصف المتحف الخاص بآثاره ، ويروى أنه كثيراً ما شوهد بثياب العمال يشتغل في إنشاء السفن البحرية ، ولما ثار على حكومته رجال المليشيا الذين كان لهم كبير النفوذ في البلاد وكان آنذاك في احدى رحلاته قطع رحلته عائداً الى موسكو فأنزل بهم العقاب الصارم بلا رحمة ولا شفقة ، وشرع إثر ذلك في تكوين الجيش النظامي على غرار النظم المتبعة في أوروبة ، وحرر المرأة من القيود التي كانت ترسف فيها ، وألزم طبقة الأشراف بالانخراط في خدمة الدولة ، ولما رأى الكنيسة تبدي تمنعاً في ادخال هذه الاصلاحات ألغى البطريركية وأناط السلطة الدينية بالمجمع المقدس .
وبعد أن استتبت الشؤون الداخلية وأوجد الجيش النظامي ، التفت الى منتصبي بعض أجزاء البلاد في الشمال والجنوب ، فافتتح منفذاً بحرياً لبلاده في بحر البالطيك على مصب نهر نيفا (Neva) في خليج فنلندا حيث أنشأ أولاً حصناً منيعاً يعرف بحصن بطرس وبولس (Fortress of Peter and Paul) على أحد ضفتي نهر نيفا وأصبح سجناً رهيباً فيما بعد أزهقت فيه النفوس وقضي فيه على كل من سولت له نفسه أن يثور على حكم القياصرة ، وفيه كتب غوركي (Gorky) الفاجعة (drama) الشهيرة بأبناء الشمس (Children of the sun) مثّل فيها ما ينتاب نزلاء السجن من هواجس أحسن تمثيل ، وقد ألغي هذا السجن بعد ١٩٢٢ . وبعد هذه النواة تتابع البنيان وولدت للوجود مدينة بطرسبورغ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(Peter the Great) سنة ١٧٠٣ ودعيت بطرسبورغ (Petresbourg) (حصن بطرس) حتى سنة ١٩١٥ حيث بدل اسم المدينة بـ بطروغراد باعتبار الاسم الأول ألماني التركيب وظلت تعرف بهذا الاسم حتى سنة ١٩٢٤ ، إذ استبدل الاسم ثانية بلينغراد (Leningrad) تخليداً لذكرى لينين الزعيم السوفيتي الأول [1] إثر وفاته في التاريخ المذكور .

ولم يراع عند اختيار الموقع لتأسيس المدينة حسن المناخ بل اكتفى بطرس الأكبر بأنها منفذ صالح ليطل منه على عالم الغرب ضارباً عرض الحائط بكثرة المستنقعات التي كانت تملأ تلك الأرجاء على أن دلتا نهر نيفا منفذ قديم للتبادل التجاري البحري مع جميع أنحاء المعمورة . وان شدة التبخر المنبعث من المستنقعات تجعل جو هذه البقعة شديد الرطوبة ، ويستمر الشتاء فيها من شهر تشرين الثاني حتى نيسان وتجمد المياه في نهر نيفا (Neva) ستة أشهر .

ورافق تشييد البنيان صعوبات جمة وتوفي ألوف من العمال في تركيز الدعائم

---

(١) وهو (Vladmir Ilych Ulyanov) قطب الشيوعية الأول ومؤسس اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية ، ولد سنة ١٨٧٠ في مدينة (Simbirsk) (وتعرف الآن باسم Ulyanovok) ومات في غوركي (Gorky) قرب موسكو سنة ١٩٢٤ . انضم منذ نعومة أظفاره الى المنظمات الثورية ، واشتدت نقمته على الحكم القائم منذ أن أعدم أخوه الأكبر لاشتراكه في مؤامرة ضد اسكندر الثالث . طرد بسبب نشاطه الهدام من جامعة قازان ونفي الى سيبريا ثلاث سنوات ، واستقر به المقام أخيراً في جنيف ثم في فنلاندا وباريز حيث قام بالدعاوة القوية ضد الحكم القيصري . وعاد الى روسيا في نيسان سنة ١٩١٧ برضى السلطة الألمانية مقاوماً حكومة (KerensKi) المؤقتة وبعد محاولة خائبة (في تموز) استطاع في تشرين الثاني قلب تلك الحكومة واستلام مقاليد الحكم ، وعقد مع الألمان معاهدة (Brest Litovesk) سنة ١٩١٨ ، وصفت له الأمور بعد أن قضى على الثورة الداخلية التي كانت تغذيها حكومات الغرب ، وطبق النظام الشيوعي الذي دعا اليه (Karl Marx) واضطر الى تعديل خططه سنة ١٩٢٠ مدخلاً بعض التحوير على ذلك النظام وساعياً الى قيام ثورة شيوعية عالمية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في المستنقعات حتى قيل إن هذه المدينة بنيت على أكداس من عظام البشر . وتمتاز الآن بشوارعها الفسيحة والمستقيمة وساحاتها الواسعة على ضفتي نهر نيفا وهو يخترقها من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ، وله فيها عدة روافد وقنوات مما يجعل المدينة كأنها قائمة على عدة جزر توصل بينها الجسور الكثيرة ودعيت من أجل ذلك ببندقية الشمال .

طفنا في أرجاء المدينة في اليوم التالي لوصولنا اليها ، وكان أول يوم يهطل الثلج فيه مما جعلنا لا نتبين معالم المدينة ، رافقتنا في الزيارة دليلة خاصة كانت تتكلم بالروسية وتقوم بالترجمة الى الفرنسية مترجمتنا السيدة ناديا ، ورافقنا بسيارة أخرى مصور خاص أرسلته مصلحة اينتوريست لالتقاط الصور لنا إبان هذه الزيارة .

فما سمعناه عن هذه المدينة العظيمة أنها حديثة النشأة لا يتجاوز عمرها ٢٥٠ سنة عندما بنى بطرس الأكبر حصنه المشهور والذي انقلب الى سجن رهيب واتخذ الآن متحفاً . والمباني التي تليه كلها متاحف أو معاهد للتعليم وأشهرها مبنى البحرية الذي يعد في طليعة المباني مظهراً واتساعاً .

وإن الفوارق الكبيرة بين الطبقات التي تقطن هذه المدينة من طبقة عمال كادحين تلقى ألوان الهوان والعذاب وطبقة أرستقراطية تعيش في غاية الترف قد جعلت مدينة لنينغراد مصدراً للثورة والانتفاض على رجال الحكم عدة مرات ، وإن أول إضراب حدث فيها كان عام ١٧٤٩ بين عمال النسيج وشاركهم طلاب الجامعة وكان سبباً للفتك بهؤلاء وأولئك وزجهم في غياهب السجن . وقامت ثورة كبيرة سنة ١٩٠٥ باءت بالإخفاق وأعدم من أجلها الكثير ونفي عدد كبير الى مجاهل سيبريا .

وقصت علينا دليلتنا ما عانته هذه المدينة من هول خلال الحرب الأخيرة إذ ظلت محاصرة ٩٠٠ يوم (من ١٩٤٢ — ١٩٤٥) وكانت مقاومتها للجيش الألماني مضرب الأمثال في البطولة ، ولاقى سكانها بين جوع مرهق وبرد قارس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وحرمان من كل شيء ما لا يوصف ، وأهل المدينة فخورون جداً بأنهم مع ذلك كله لم يمكنوا أيَّ ألماني أن يطأ بقدميه أرضها . وعلى ذلك فقد قصفت بالمدافع الثقيلة آناء الليل وأطراف النهار حتى تهدم معظم مبانيها ولم يبق في المدينة كلها لوح واحد من الزجاج سالماً . وما إن ألقت الحرب أوزارها والمدينة على ما هي من خراب قدَّر الألمان أن إعادتها الى سابق عهدها يستغرق مدة لا تقل عن ٢٥ سنة . وتضيف دليلتنا الى ما تقدم فها هي تعود الى ما كانت عليه بعد خمس سنوات . وضربت لنا مثلاً عن إسراع الشعب الى تشييد البناء أن مدرسة تتألف من أربع طبقات انتهى بناؤها في ٣٨ يوماً . وجاز البنيان الحديث حدود المدينة السالفة الى أطرافها وأصبحت خلواً من أي بناء قديم على عكس ما هي الحال فيه في موسكو . وذكرت الحرمان الذي تعرض له السكان المحاصَرون ان نظام التقنين الذي فرض عليهم لم يكن ليسمح للفرد الواحد بأكثر من ١٢٥ غراماً من الخبز في اليوم .

ولقد درج القوم على تخليد ذكرى انتصارهم بأن ينشئوا الحدائق ويغرسوا أشجارها بأيديهم ، وإن من جملة ما شيد لهذا الشأن حديقة تبلغ مساحتها ١٣٠ هكتاراً فيها ستة تماثيل لأبطال أبلوا بلاءً حسناً إبان المقاومة والحصار فاستحقوا شكر الشعب وشرف إقامة تلك التماثيل لهم وهم أحياء . وجرى احتفال فخم لهذه المناسبة حضره أصحاب التماثيل وذووهم وأنسباؤهم مما لم يسبق له مثيل في تاريخ البلاد .

وفي المدينة حديقة أخرى تضم رفاة من قتلوا في إحدى معارك الثورة الداخلية انتفاضاً على الطغيان . وفي لنينغراد تمت الثورة التي أطاحت بعرش القياصرة ، وتم تسلم السلطة من الحكومة الموقتة من قبل لينين وأتباعه في احدى القاعات الرخامية الخضر (مالاشيت) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ورأينا أثناء تجولنا في أرجاء المدينة كنائس يجدد بناؤها ، منها كنيسة تعرف باسم اسحق كانت قريبة من فندق استوريا ، ويجدد البناء لها لا لأجل إقامة شعائر الدين بل لاتخاذها متاحف . وراعنا ما رأيناه من تمثال كبير لبطرس الأكبر كتب تحته بطرس الأول كاترينا الثانية ، وهو يمثل الرجل العظيم ممتطياً صهوة جواده الذي لا يستند الى قاعدة التمثال إلا بقائمتيه الخلفيتين ، وقد روت لنا الدليلة أن نزاعاً قد ذر قرنه بين الكنيسة وبين بنت القيصر التي كانت تقطن القصر المقابل للكنيسة ، ووجه النزاع هل يوجه ذنب الجواد شطر الكنيسة أم شطر القصر ، ولما رجحت كفة رجال الدين اضطرت الأميرة إلى مغادرة القصر واختارت سواه مقراً لها .

وإن من أشهر شوارع المدينة (Mevsky Prospect) الذي يشبهه الأجانب بشارع الإيطاليين (Boulevard des Italiens) في باريز ، ويمتاز بسعته وبالمباني الجميلة الرائعة في جانبيه ، وساحة القصر (Dvotsovaya Ploshochad) من أكبر ساحات المدينة وأجملها يطل عليها قصر الشتاء الذي سيأتي ذكره وبتوسطها تمثال الملاك ذي جناحين يحمل صليباً فوق عمود لا يقل ارتفاعه عن خمسين متراً . ولكاترينا الثانية تمثال كبير أمام تياترو بوشكين (Pushkin theatre) مما لم نستطع أن نتبينه بسبب رداءة الجو وهطول الثلج .

وليالي الصيف في لينغراد روعة خاصة وتعرف بالليالي البيض (White Nights) في شهري حزيران وتموز حيث يسفر الشفق حتى يستطيع القارئ أن يقرأ في الخلاء بغير مصباح ، مما يجعل لهذه المدينة روّاداً يقصدونها في الصيف ، فضلاً عمن يقصدها في أشهر الشتاء ناعماً بها بأنواع الرياضة الشتوية .

ومما ذكر لنا عن هذه المدينة أنه كان فيها بعد الحرب متحف جمع فيه كل ما أمكن جمعه مما يمثل ويلات الحرب وأهوالها ، وما عاشت فيه المدينة خلالها من بؤس وعوز ، حتى كان الزائر كثيراً ما يغشى عليه من عظم ما يراه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فاضطرت الحكومة الى إغلاقه . وإن ما أبدته لينغراد من ضروب البسالة وضراوة الكفاح إبان الحرب والعدو المغير على بضعة كيلومترات منها قد أنعم عليها من أجل ذلك بالوسام الأكبر للينين وقد رأيناه منقوشاً فوق دار بلديتها .

ويغلب على سكان هذه المدينة المرح أكثر من سكان موسكو وهم بالجملة متجانسون شقر البشرة قلّ أن تجد بينهم ما تجده في موسكو من السكان الآسيويين . ويقدر عدد السكان بـ ٣و٥ مليون وكان في إحصاء ١٩٣٩ (٢و٧٠٠٠٠٠) .

وإن مما رأيته في أثناء تجوالي في المدينة جامعاً ذا قبة شاهقة ومئذنتين جميلتين وواجهة من القاشاني البديع كتب فوق بابه بخط جميل (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) ثم (حافظوا على الصلوات) . وكان بابه الرئيسي يسدّه الثلج سألت عنه فقيل انه قيد التصليح وحاولت الدخول اليه من أحد أبوابه الجانبية فاذا بالباب يفتح وسيارة شحن ضخمة تخرج منه تحمل صناديق رأيت مثيلاتها في صحنه مما يدل على اتخاذ القوم إياه مستودعاً .

(للبحث صلة) الدكتور حسني صبح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net